محفوظ عبد الرحمن

إيهاب الملاح*

قبل عامين، تقريبا في (ديسمبر ٢٠١٥)، صدر لأول مرة نص السيناريو والحوار للمسلسل التاريخي النادر»ليلة سقوط غرناطة» للعظيم محفوظ عبد الرحمن، أحد أسطوات الدراما الكبار، وصاحب أشهر وأجمل الأعمال الدرامية التي ارتبط بها وجدان المشاهدين المصريين والعرب. صدر السيناريو عن سلسلة (آفاق السينما)، وحينها كتبت عنه مفتونا بجماله وروعة سرده وحواره، صحيح أنني كنت سمعت عن المسلسل، لكني لم أكن شاهدته ولا قرأت نصه.

السيناريو مذهل، مكتوب بحرفية عالية، ويقدم قراءة «مؤسية» للحظات الأخيرة في عمر غرناطة قبل سقوطها في يد الملكين الاسبانيين فرديناند وإيزابيلا..لكن الأهم بالنسبة لي - في اللحظة التي قرأت فيها النص- ما كان يشير إليه استدعاء هذه الحقبة التاريخية العصيبة بكل التباساتها وحمولاتها السياسية

---

* كاتب صحفي وناقد، نشر بجريدة الشروق بتاريخ ٢٥ أغسطس ٢٠١٧.

obeikan.com

والثقافية، لحظة تكالبت فيها الخيانة والمؤامرة والمكائد والدسائس واستثمار الفرقة التي لا تزول بين العرب أحسن استثمار.

وقعت في أسر هذا السيناريو الذي حرضني بجنون علي مشاهدة المسلسل(لم أنجح حتي الآن في الوصول إلي وسيلة تمكنني من مشاهدته)، والذي منع من العرض في مصر وقتها(١٩٧٩)، وتجنبت شراءه وعرضه علي دول عربية أخري، ولم يبق سوي دول قليلة هي التي وافقت علي قبوله، نصفها من دول الشمال الإفريقي التي احتفت بالمسلسل وعرضته علي شاشات تليفزيوناتها. حينها قمت بمراجعة رصيد محفوظ عبد الرحمن الفني، في الدراما والسينما، مشاهدة وقراءة، وأدركت يقينا أنني أمام كاتب عملاق من الطبقة الأولي الممتازة جنبا إلي جنب أسامة أنور عكاشة، ومحسن زايد عليهم جميعا رحمة الله. لكن يبقي محفوظ عبد الرحمن من بينهم مخلصا للدراما التاريخية التي نجح من خلالها في ترسيخ وحضور أحداث ووقائع وشخصيات تاريخية في وجدان المشاهد البسيط ودون أدني مجهود يستطيع الباحث أن يرصد حضور مسلسلات مثل « بوابة الحلواني» و « أم كلثوم» ومن قبلهما «ليلة سقوط غرناطة» وغيرها في وجدان وذاكرة أجيال من الجمهور المصري والعربي علي السواء.

بذكاء شديد وحساسية عالية كان محفوظ عبد الرحمن يختار اللحظات التاريخية المفصلية شديدة الخطورة وبالغة الدلالة ليجسد من خلالها أزمة الإنسان العربي، ولم يكن تخيره لحظة سقوط غرناطة، مثالا ، إلا مجازا وقناعا لمآلات الحاضر والأحلام التي انهارت وسقطت بفعل الخيانات المتراكمة والتنازلات المتتابعة وغياب الرؤية والقدرة علي قراءة الواقع والمستقبل معا.

المرة الأخيرة التي شاهدته فيها كانت في مايو الماضي، في الاحتفال الكبير بإطلاق كتاب «أحاديث برقاش- هيكل بلا حواجز» لعبد الله السناوي. كان يجلس وديعا هادئا بجوار رفيقة العمر الفنانة سميرة عبد العزيز، مجرد ما وقعت عيناي عليه هرولت لتحيته، عندما لمحني اجتهد مخلصا للقيام بكل أدب وذوق عرفا عنه، أسرعت حتي أتمكن من منعه من بذل أي مجهود. قبلت رأسه وعانقته جالسا. قلت له:» واحشني يا أستاذ محفوظ» ..، تمتم بكلمات لم أسمعها، تبينت بالكاد بعض حروف تلتئم قد توحي بنطقه بكلمة»ابني».

لم أكن أعلم أنني لن أراه مرة أخري، ولن أتمكن من تلبية دعوته الكريمة بزيارته في بيته بحي الشيخ زايد في مدينة السادس من أكتوبر، بصحبة أخي وصديقي العزيز الناقد رامي عبد الرازق، واحد من أنجب وأخلص تلاميذ محفوظ عبد الرحمن، وأقربهم إليه إنسانيا وفنيا.

في مكالمة تليفونية قبل شهر تقريبا اتفقت مع رامي علي أننا سنقوم بزيارة الأستاذ محفوظ عبد الرحمن عقب خروجه من المستشفي إثر وعكة صحية ألمت به، وألزمته غرفة العناية المركزة بأحد المستشفيات لأيام، رحب رامي بمقترحي وقال لي فورا، بمجرد الاطمئنان علي صحته ومغادرته المستشفي سنتوجه إلي منزله فورا، هو يحب الناس ويحب أن تزوره وينتظر ذلك.. لكن الأجل لا ينتظر، ولكل أجل كتاب..رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

obeikan.com